الإسلام

فى مواجهته للماديين فى قضية الألوهية

تقديم :

بقلم الدكتور

محمد أبو الغيط الفرت

الأستاذ المساعد بكليه أصول الدين بالقاهرة

إن البحث فى موضوعنا هذا يتطلب قبل كل شىء إثبات الموجود ، ومن خلال ذلك يمكن إثبات الوجود ، ثم ننظر بعد ذلك فى أنواع هذا الوجود لنصل فى النهاية إلى معرفة نوعية الموجد لهذا الوجود .

وقضية إثبات الوجود وإن كانت نظرية فلسفية تحتاج إلى البرهنة عليها فى مجال البحث الفلسفى ، إلا أنها فى الوقت نفسه بدهية بالقياس إلى الأدراك الحس .

ومع كل هذا وذاك فانه لامفر من التعرض لبحثها لكى نقطع جذور الشك من البداية ليصل البحث فى النهاية سليما عن اقتناع .

أننا إذا أدركنا الوجود فإننا فى الوقت نفسه ندرك العدم ، وحين ندرك العدم تكون بين حالين .

أما أن ننفى العدم فنكون قد أثبتنا الوجود ، وأما أن نثبته فتكون قد أثبتنا حقيقة ، وإذا أثبتنا حقيقة أثبتنا الوجود .

ويمكننا أن نستنتج من هذا أن العدم المطلق محال .

بعبارة أخرى نستطيع أن نقول : إذا أثبتنا أو نفينا فقد أثبتنا أنفسنا وهذا معنى وجودنا .

ويمكننا أن نستنتج من هذا أيضاً أن الوجود قائم وثابت وأن العدم المطلق محال .

وهذا هو المنهج الذى جاء به (ديكارت) حينما قال ليثبت أن الوجود حاصل (أنا أفكر ، إذن أنا موجود) وذلك لأن الفكر شىء ، وعليه يمكن وصفه بالوجود ، لأنه انتهى إلى أن الفكر بلا مفكر ضرب من الخيال .

ومن الوجود وجود مطلق ومنه وجود إضافى ، كما أن العدم منه مطلق وهو محال ومنه إضافى وهو واقع وحاصل ،

فالمطلق من الوجود مالابداية له ولا نهاية ، وهو الوجود الأزلى الأبدى .

أما الوجود الإضافى فهو ما كانت له بداية واقترن بنهاية وكان محلا للتغير ا ولما كان العدم المطلق محالا فإن العدم الأضافى هو المقابل للوجود الاضافى ، وكل من الثلاثه المذكورة تحتاج إلى بحث وتفصيل ليس هنا محله ،

والحواس لها دخل كبير فى نقل الصور الحسية إلى المخيلة لتكون طريقا إلى إدراك الوجود ، إلا أنه ينبغى أن نبين أن الحواس قاصرة قصوراً كبيراً عن إدراك كثير مما فى الوجود بعد أن ثبت وجوده وجوداً علمياً لامحل لأنكاره ، فالعين مثلا ترى الظل ويخيل إليها أنه ثابت لا يتحرك عن مكانه بينما بمرور بعض الوقت تراه قد انقشع عن محله الذى رأته فيه المرة السابقة بزمن يسير ، كما أن العين ترى الألوان إلا أنها تقف عند حد معين محصور فى الطيف الضوئى ، ولا ترى مافوق الأحمر ولا ماتحت البنفسجى ، أما الأذن فإنها تسمع الأصوات ولكنها لا تسمع إلا ما وقع تردده بين حدين معينين ، فضلا عن أنها تعجز عن تقدير الصوت نظرا لبعده أو قربه

وقد يكون الأنسان وحيداً فى حجرة مغلقة تماماً ويظن بل يعتقد أن لاشىء يقتحم عليه وحدته ، فلا شىء هناك يراه أو يسمعه أو يحس به .

ولكن سرعان ما يتبدد ذلك الوهم ويتبدل الأعتقاد بفضل الأجهزة التى هى نتاج الفكر والنظريات العقلية ، فإن الإنسان إذا عمد إلى فتح جهاز مرئى (تليفزيون) وأداره على موجات ذات ذبذبات خاصة فإنه يرى صور أو يسمع أصواتا فى حجرته لم يكن ليدركها لولا فتح ذلك الجهاز ، وكان يعتقد عدم وجودها ، وظل الناس ردحا من الزمن يؤمنون بعدمها قبل اكتشاف هذه التجارب العلمية .

وقس على ذلك الكائنات الدقيقة التى لاتدركها العين المجردة لولا الأجهزة المكبره التى يستعين بها ، كما أن عجز الحاستين المذكورتين (العين والأذن) يثبت عند قصد الأدراك عبر أبعاد لاتستطيع هاتين الحاستين إحضار المبصر أو المسموع .

أما حاسة الذوق فقد تدرك طعم المرارة فى شراب حلو المذاق لفم يقوم بها ، وقد تتعطل تماماً حاسة الشم لما يصيبها من علل مختلفة فلا تكاد تدرك شيئاً يمكن الحكم عليه .

على أن هناك حقائق أخرى نتاج نظريات علمية وتجارب واقعية وهذه الحقائق ثابتة ثبوتا قطعياً لاسبيل إلى إنكارها ، ومع ذلك فهى غير خاضعة لحكم الحواس الصرفة من حيث الأدراك المادى ، مثل الكهرباء ، فحقيقتها لايمكن تكييفها على طريقة مادية خالصة . كما أن هناك العقل ، فإن الأنسان يدركه من غير طريق الحواس ، ومثله الكثير من الحياة الوجدانية والعاطفية ووظائف الذاكرة والشعور ، فهذه وغيرها وجودها لاشك فيه من غير أن يكون سبيل إدراكها الحواس الظاهرة .

والجلد ينقل الأحساس بالحرارة والبرودة ولكن إحساس بأى منهما

نسبى ، فإذا غمست يدك الحارة فى ماء دافىء تجده باردا ، وإذا غمست يدك الباردة فى الماء الدافىء نفسه تجده حارا ، وهو هو لم تختلف درجة حرارته ، لكن الأحساس الذى نقلته حاسة اللمس كان متناقضا ومختلفا .

وبهذا التتبع البسيط نجد أن الحـــواس وهى منافذ الأدراك الأولى لاتحيط علما بجميع الموجودات ، وأن النسبية تلحقها فى كثير من الأدركات وهذا يجعلنا نلمت النظر إلى الحواس وحدها لاتكفى لمعرفة الوجود والإحاطة الشاملة بكل موجود ، ويجعل فى تحصيل :ضايا العلم عن طريقها وحدها ظنى وليس باليقينى ، وبالتالى يتهافت قول من يقول إنه لايؤمن إلا بما نراه أو يقع تحت حسه .

وإذا كنا نلاحظ هذه المـآخذ على الحواس وأن الأدراك عن طريقها وحدها غير مأمون النتائج على الوجه الأكمل : فإن من قصر المعرفة على الحواس يكون قد حرم المعرفة .

ومع ذلك نستطيع أن نقول إن من استهان بقيمة ماتسوقة الحواس ولم يعترف على وجه الأطلاق بنفعها فإنه يقع فى الريبة والشك المطلق .

ولـكن الذى يجب أن يؤخذ فى الاعتبار هو أننا حين نستعمل الحواس لاتهمل شأن العقل ، بل يجب أن نصغى لصوت العقل فينا وأن نلاحظ النسبية بين هذا أو ذاك ، وتضع كلا فى موضعه ، ونستعمله ضمن حدوده وقوانينه المحددة له .

وعند ذكر الوجود وثبوته نجد بين الناس طائفة تقوم على الشك المطلق والريبة المطلقة ولا يقفون عند شكوكهم عند حد وهم (اللاأدرية) وهؤلاء إن سألت أحدهم عن كونه موجوداً أم لا ؟ قال : لا أدرى . أو مسألته عن حقيقة الخبز أو الشر . قال : لا أدرى . أو سألته هل يشعر بذاته ؟ قال : لا أدرى . إلى غير ذلك من كل مايثبت وجودا حتى أنه لايدرى أنه يدرى فهو يشك فى كل مفهوم يثبت حقيقته .

وإن هذا المذهب الذى أنشأه طائفة من الشكاك أو اللا أدريون جريا وراء النزعة السفسطائية وامتداد المـاهب السفسطة لمذهب فاسد يقوم على أسس منهارة ومتهافتة ، لأن هدف أصحابه هو دفع الشـــباب والمجتمع إلى حياة الفوضى والهمجية بلاحدود فاصلة بين العدل والظلم ، ولافرق فى قوانينه بين العفـه والفضيلة ولافاصل بين الجـبن فيه والشجاعة والخنوع ولا حكمة فيه ولاعقل ، اللهم إلاشريعة الغاب ، كل يحقق لذته وأنانيته على انقاض الفضيلة وإبادة معالم الخير فى الحياة كلها وإهدارا لقوة العقل وهى أعظم هدية أهداها الخالق إلى الأنسان ، وفى كل هذا رجوع بالحياة إلى ظلماتها الأولى ورجعيتها الحجرية لأن آثاره بذلك تقديم الفرد والمجتمع .

واللاأدرية طائفة من السوفطائية ، والسفسطة خروج عن قواعد الفضيلة والأصول الأخلاقية ، وهؤلاء يـكن إبطال مايدعون من أبسط الطرق وأسهل المقدمات ، فإننا لو طلبنا إلى أحدهم أن يلج النار لامتنع إقرارا منه بحقيقة الأحراق ، أو طلبنا إليه أن يتجرع السم لاحجم إقرارا منه وإعترافا بحقيقة الضر ، إلى آخر ذلك .

ولذلك فهؤلاء متناقضون مع أنفسهم ، فقول أحدهم يكذبه عمله ، وكذلك فهم جاهلون متناقضون متهافتون .

وإذا تبددت شبهه الشك المطلق وثبتت حقيقة الوجـــود ثبت بالتالى أنواع الموجودات سواء منها الموجودات المادية من مذوق وملموس ومسموع ومرئى ورطب ويابس وحار وبارد والموجودات المعنوية التى فيها المعلوم والموجود ، وهى أساس المعرفة ، والتى فيها والضار ، وهى أساس الاخلاق ، ونعنى بالنافع والضار هنا ماكان أصلا للحكم الخلقى مثل الظلم والعدل والعفة والشجاعة ، لا المنافع الشخصية .

مبدأ السببية وحدوث العالم :

خلق الإنسان متميزاً عن سائر الكائنات بميزه العقل ، ومنه كان الفكر والإدراك ، وحين أشرق عقله ووجه فكره إلى الوجود تساءل بفطرته عن مبدأه ومنتهاه .

فأخذ يتسائل : من أين ؟ وإلى أين ؟ وهو وإن كان يرى أن وجوده المباشر قد كان من رحم أمه أو من نطفة أبيه ، إلا أن هذا لم يكتف به ، لأنه يستشعر أن وراء ذلك مبدأ أول ترجع جميع الأسباب لهذه المسببات التي يقع عليها حسه وإدراكه أناء الليل وأطراف النهار ، فإذا نظر إلى جو السماء وأديم الأرض رأى أن المطر ينهمر من السماء فتعانقه الأرض وفيها البذر الجامد الصلب فينبت شجراً ثم يؤتى ثمراً طيباً وشهيا من بين الماء والتراب .

ثم إن الماء — كما أثبتت النظريات العملية — يتكون من عنصرين ضروريين للحياه هما عنصر (الأوكسجين) وعنصر (الأيدروجين) وكل شيء في الوجود وتقع عليه عين الإنسان ويدركه بفكره إلا تعلق وجوده بسبب .

فليس هناك حادث يحدث من غير سبب يحدثه ولا ينكر ذلك إلا مكابراً ومغالط ولهذا نرى ذلك العربي الذي أطل عقله من ربوه الجاهلية الجاحده على قبس من الهداية والتمامر بعض جوانب الحقيقة من خلال المتاهات التي كان يعيشها بني حلدته فيقول : البعره تدل على البعير وأثر السير يدل على المسير ، ليل داج ونهار ساج وسماء ذات أبراج ألا يدل ذلك على اللطيف الخبير ، مابال الناس يموتون فلا يرجعون ويذهبون فلا يعودون؟ أرضوا فأقاموا أم تركوا فناموا . إن في السماء لخبر وإن في الأرض لعبر .

وبشيء من الاستقراء لكل مايتكلم به الإنسان ومايحكم به في شتون حياته في يومه وليلته لوجد انها في كل مراحلها ترتبط ارتباطا وثيقا بمبدأ أرتباط الأسباب بمسبباتها ، وهذا هو مايسمى في قانون الفكر وفي كتب الفلسفة بمبدأ السببية ، وهو من مسلمات الحركة الفكرية وأساس الأحكام العقلية وأول مبادىء المعرفة .

وإذا سلمنا بمبدأ ارتباط الأسباب بمسبباتها نستطيع بعد كل هذا أن نقول أن كل حادث لابد له من محدث ، وعلى ذلك يستحيل أن يوجد شيء من لاشيء أو من غير موجد يوجده ، وكذلك محال أن يحدث حادث بذاته بل لابد أن يكون حدوثه من غيره وهو أمر مسلم من العقل عن يقين ،

وهذا هو مايقرره القرآن الكريم في قوله : تعالى (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون) « الطور ٣٥ » وعلى ذلك نستطيع أن نقول :

بأنه وإن كان السبب الحقيقي لكل مافي الوجود هو الله سبحانه وتعالى إلا أنه خلق أسباباً مقارنة للمسببات ، كما نستطيع القول بأن مانشاهده في عالمنا من أرض وسماء وجبال وأنهار وشجر ودواب وشمس وقمر ونجوم ، لابد أن يكون وجودها عن محدث أحدثها ، والأسباب الفرعية وإن كثرت وتعددت إلا أنها ترجع في النهاية إلى سبب واحد كما ترجع الأعصار الكثيرة الشجره هائلة إلى أصل واحد هو جذعها المكين في الأرض وهو واحد

ذلك الموجد لهذه الكائنات الحادثة المتكون منها العالم الحادث هو مايسميه المفكرون المسلمون بواجب الوجود ، إذ يستحيل أن يحدث حادث عن حادث مثله أو أن ينبثق وجوده عن عدم ، فإنكار واجب الوجود تناقض محض وإقامة على الخطأ والضلال لأن العقل عليه والواقع يؤيده .

نثبت إذن أن لكل حادث محدث ولكل موجود موجد ، ولابد لهذا العالم المتغير من موجد لا يتغير

هذا ، وقد يغفل بعضهم من القول بحدوث العالم كيلا يقر بأن له محدثا فيقول . لانسلم بحدوث العالم بل نقول بقدمه وعدم أوليته

ونستطيع ابطال قوله بما قاله الامام الغزالى بما أبداه عن ملاحظة الحركة والسكون فى دورة الفلك التى من خلالها ألزم هذا الخصم بحدوث العالم وإبطال القول بقدمه فقال رحمه الله .

إن دورة الفلك إما أن تكون شفعا أو وترا ، فإن كانت شفعا فقد أتمت عددا فردياً ، وإن كانت وترا فقد أتمت عددا زوجيا ، إذن فالعدد السابق على كلا الحالين محدود ، ولما كان محدودا فهو حادث قطعا(١)

ولعل من يقول هذا يعود فيقول . إن المادة الأولى للعالم ويسميها (هيولى) قديمة والحركة طارئة عليها ، ونقول له : من أين طرأت الحركة على المادة ؟ أما طروها من ذاتها فمحال لأنها غير ذات حياة بالاتفاق ، وإذن فلابد أن يكون طرو الحركة عليها من خارج عنها هو الذى رجح وجودها على عدمها ، وهذا لايكون إلا واجب الوجود سبحانه وتعالى . والقائلون بقدم العالم بعضهم من الهاربين من الاقرار بوجود إله خالق — وهم أصحاب المادية الجدلية — وقولهم هذا متهافت باطل لا يستند إلى برهان أو دليل قطعى . وعليه نعيد ذكر النتيجة السابقة : إن هذا العالم

---

(١) يقول الإمام الغزالى رحمة الله فى دليل على حدوث العالم سماه برهان التطبيق : إن العدد الفردى هو (٦١) والعدد الزوجى هو (٦٠) فالعدد الفردى لم يصبح (٦١) حتى سبقه العدد (٦٠) والعدد الزوجى لم يصبح (٦٠) حتى سبقه العدد (٥٩) وطالما كان العددين مسبوقا فقد صار صار محدودا ، ولما كان محدودا فهو حادث قطعا لوجود السابق عليه . (أنظر تهافت الفلاسفة ـ برهان التطبيق)

حادث وكل حادث لابد له من محدث ، كما تشهد به فطرة الصبيان وهو المركوز فى طباع البهائم ، وهذا المحدث هو الخالق الحكيم ، وحدوث العالم يتمثل فى عرضته للتغير والظور والأفول ، وهذا ما حاج به نبى الله وخليله ابراهيم عليه الصلاة والسلام قومه حينما أراد أو يستنطق منهم الفطرة بأن موجد العالم خالق حكيم قديم ليس حادثا ومتغير لأن بأن المتغير ألا يكون خالقا بديهية العقل ، وسجل القرآن الكريم مناظرته فى ذلك لقومه فقال تعالى :

« فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال ياقوم إنى برىء مما تشركون ، إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين » الأنعام ٧٦ ، ٧٩ .

والمتأمل فى محاجة إبراهيم لقومه يستخرج منه قياسا عقليا منطقيا فى منتهى القوة الجدلية إذ يصير برهانه هكذا : الكوكب آفل وربى ليس بآفل

الكوكب ليس ربى ، وهو قياس من الشكل الثالث استنبط من تغير العالم من خلال الظهور والأفول ، وفى كون الصفات الطارئة على العالم تتحكم فيه بالقهر والالزام وفى تطوره ومصيره ، ولم يستطع أى حادث أن يدفع ذلك عن نفسه أو نجرده عنه ، ولذلك فإن العجز والنقص صفة الحوادث دائماً

وتحقيقاً لذلك نجد الإنسان الذى هو أكمل الكائنات مقهوراً لأسباب كثيرة منها : ولادته ومعاناته للآلام وصيرورته إلى الموت ، وكل هذا وأمثاله يجرى عليه رغماً عنه دون ما اختيار ولا إراده ، فهذه حقيقة أكمل الكائنات من جهة امتيازه بالعقل والإدراك الواعى واصطناع القدرات ومع ذلك لم يخرج عن دائرة العجز والاحتياج وهو المعنى المقصود بالحدوث .

فالإنسان يدرك تماما أنه لم يخلق من لاشيء أو أنه يستطيع أن يخلق أي شيء (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون) (الطور ٣٥ - ٣٧)

(إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب) (الحج ٧٣) .

وكفى بهذا بيانا لعجز الإنسان وتحديا لقوته وقدرته ، وإذا عجز بذاته عن أن يكون مؤثراً في شيء ما إيجاداً أو عدماً فالأولى ألا يستطيع إدارة فلك من أفلاك الكون العظيم ليجعل للناس ضياء أو ليلا يكون لهم فيه راحة وسكونا : (أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ، قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون) (القصص ٧١ — ٧٢) .

وكون الله هو الخالق وأنه إلى مشيئته تنتهي أحداث الكون أمر فطري لدى الإنسان وبدهي بالنسبة إليه ، فإذا سئل عن هذه الحقيقة . (ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ليقولن الله) (العنكبوت ٦٣) .

(ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله) (العنكبوت ٦١) .

فالجواب من أعماق الإنسان — إذا ما تجرد عن العناد — بأن الخالق المدبر هو الله ، والجواب واحد لم يتخلف على أي حال ، وهو بدهي ، لأن هذه الموجودات خارجة عن نطاق قدرة الإنسان ، فهو جواب الفطرة المستكنة في داخل الإنسان .

فالخالق المدبر الحكيم لكل الحوادث فوقها علماً وقدرة ، وهو غير الحوادث وفوق الحوادث ، إذ لو كان حادثا لاعتراه الفناء والعدم ، ولكان العدم هو أصل الوجود ، ومستحيل أن يكون العدم المطلق أصلا للوجود .

هذا ، ولا نود أن نذكر ما قاله السابقون من التدليل على أن الذي أحدث العالم ليس بحادث وذلك ببرهان التسلسل الذي يثبت استحالة حوادث لا أول لها .

ونكتفي بالقضية المذكورة وهي أن حدث العالم لو كان حادثا لكان محلا لطرد الفناء والعدم ، وبذلك يصير العدم المطلق أصلا للعالم وهو محال ، ونكتفي في ذلك أيضاً بما سقناه من قول الإمام الغزالي السابق ، فبرهان التطبيق أحد وجهي برهان التسلسل .

على أنه لا يفوتنا أن يقول إن التسلسل المطلوب إبطاله نوعان : أحدهما المذكور وهو المفترض فيه عدم اللانهائية في جانب الماضي ، والثاني : الدور ، أما ما يسمى أحياناً بالمستدير ، وذلك بالتقاء طرفي دائرته ، وهو يفضي إلى أن النتيجة هي كون الحادث عن المحدث وهذا أمر باطل ، ويسمى هذا الدليل في اصطلاح علماء الكلام بالدور .

ونخلص من كل ذلك إلى أن السبب الذي تنتهي إليه سلسلة الموجودات الحادثة لا بد أن يكون :

١ — قديماً لا أول لوجوده وهو الله سبحانه وتعالى .

٢ — وهو كامل يتصف بالكمال المطلق لأن كماله لو كان نسبياً لكان محدوداً والمحدودية من صفات الحوادث ، فإن لها مبدأ ونهاية وصغراً وكبراً وقلة وكثرة إلى غير ذلك ، وإذا كان كل حادث محدود وكل محدود حادث ، وإذا كنا قد أقمنا الدليل على أن موجد العالم ليس حادثا إذن فهو ليس إلا في العلم ولا في القدرة ولا في غيرها من صفاته الأخرى ، فوجب اتصافه بكل صفات الكمال المطلق .

أما مسألة إدراك الموجد إدراكا كاملا فهذا مستحيل بحكم العقل والنقل ،

أما بالعقل فلا أن الإنسان المحدود الوجود النسبى لا يمكن أن يحيط على وجه الشمول بذى الكمال المطلق ، فالمحدود فى كل صفاته لا يستوعب اللا محدود فى كمالاته ، وليس معنى هذا استحالة معرفته بالكلية . . كلا ، وإلا لما صح لنا أن نحكم له بالوجود المطلق والكمال المطلق ، ولكن المستحيل هو استحالة الاحاطة بمعرفته كاملة شاملة ، ولهذا قيل :) العجز عن درك الأدارك إدارك) .

وأما استحاله إدراكه إدراكا فلا بحكم النقل فلقوله تعالى (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) (الأنعام ١٠٣) فالأدراك على وجه الأحاطة من خصائص المدرك الأكبر بالنسبة للأصغر وهو ليس موجودا فى الأصغر بالنسبة إلى الأكبر .

نعم قد يدرك الأصغر مثله إدراكا كاملا ولكن لا يتعداه إلى الأكبر قال سبحانه : (ليس كمثله شىء وهو السميع البصير) (الشورى ١١) .

ومن المعلوم ضرورة أنه لابد من إدراك الصانع سبحانه بوجه ما ليصح الحكم عليه بالوجود وبالصفات المحققه لكماله المطلق ، إذ لا ينبغى أن يفهم من قولنا باستحالة إدراكه إدراكا كاملا أن يكون مجهولا جهالة كاملة يصير بها إلى لا شىء أو إلى عدم مطلق ، فهذا لم يقل به عاقلا ونحن لا ندعيه أبداً .

فالله سبحانه يمكن معرفته من خلال آثاره ولكن لا تحيط به المعرفة على وجه الكلية والشمول .

وإذا كان الله هو الخالق وهو الكامل المطلق المستغنى بذاته عمن سواه ، فليس إذن محتاجا إلى موجد يوجده لأن وجوده من ذاته ، والذى وجوده من ذاته لا يحتاج إلى غيره لكن يحتاج إليه كل ما عداه .

موقف آخر مع الطبيعيين :

ومع كل هذه البراهين المثبته أن هناك إليها للكون خالقا كاملا كاملا لا مطلقا غير محتاج إلى من عداه ، قديما لا أول لوجوده ، وأن وجوده من ذاته . . مع كل هذا لإنعدم أن يكون فى عصرنا أصحاب نغمة عجيبة ، وهم أناس يزعمون إلهها للكون غير الله يتمثلونه فى (الطبيعة) ، فالطبيعة إلههم المزعوم ، وهى التى خلقت السموات والأرض فى نظرهم وخلقت النبات والحيوان ، خلقت الإنسان والجماد وتدير الافلاك وتمنح الحياة .

وإننا إذ نطرح هذه القضية على بساط البحث للمناقشة وبيان الحق فيها ، والحق أحق أن يتبع نستطيع أن نبدأ القول بالسؤال عن ما هية هذه الطبيعة المزعومة إلها . وماهو مفهومها ، وماهى حقيقة تأثيرها فى الوجود ؟

قال أهل اللغة : ان الطبيعة معناها ، الخلق والسجية ، وعند الزاعمين الهيتها لا يخلو مفهومها من خلال كلامهم من أحد مفهومين :

الأول : أنها عين الأشياء — أى عين ذواتها — فالحيوان والنبات والجماد ، كل هاهيتك الكائنات هى ذات الطبيعة .

الثانى : أنها عبارة عن الخصائص المستكنه فى الأشياء والصفات القاهرة فيها ، ومن هذه الصفات . . الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ، والملاسة والخشونه ، ومن خصائصها خصائص القابلية من حركة وسكون وكون وفساد ، ومن تزاوج وتوالد ، واغتذاء ونحو وغير ذلك .

فهذه الخصائص وتلك الصفات هى الطبيعة ، ولا تخرج عن أى من التفسيرين ، فهى أما ذاوت الاشياء أو خصائص وصفات الأشياء .

فاذا قلنا بالأول لم نزد على أن قلنا ، إن ذات الشىء أوجدت نفسى

نعم هناك تساؤلات كثيرة يثيرها العقل ولا يستطيع أحد أن يكفه عن ذلك فيمكن أن يقال : كيف يمتص جذور النبات الماء ويصطفى ذرات بعينها وينضجها ويسوقها إلى الثمر ويكون العصارة وينشىء الحلاوة فى بعض والمرارة فى بعض آخر ، فما هو سبب هذا وغيره ؟ ولا ينبغى أن نقف عند الوصف أو الخاصة وكل ذلك أعراض لا ذاتية فيها وليس فى أى منها خاصية الخلق ، ثم ما هى حقيقة تلك الطبيعة ، ومن الذى طبع الأشياء فيها وكيف هو تأثيرها ؟ وهل هى تبدع أم تصنف وتركب ؟ وهل هى فاعلة بذاتها أو منفعلة بغيرها ؟

إننا نرى الطبيعيين قد نقلونا من مجهول واحد إلى مجاهيل عدة ، ونقلونا من أصل ترجع إليه جميع الأسباب وهو مصدرها إلى أمور لا تحسم الأمر فبدلا من أن تصوب النظر إلى خالق للحبة والحيوان والنبات جعلونا نقصر النظر إلى صفات منفعلة ليس لها من القدرة على الخلق أقل نصيب .

إن الأمر يحسم بقوله إلى نظرنا عن وعى إلى آيات كريمة من كتاب الله العزيز فيها قوله تعالى :

[إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ذلكم الله فأنى تؤفكون] الأنعام — ٩٥

وبذلك نخرج من النظر فى أمور مجهولة إلى امر واضح معلوم هو الله الأول والآخر والظاهر والباطن وهو على كل شىء قدير ، فما فى الطبائع من أوصاف وخصائص لا تعدوا أن تكون أسبابا تعضد الأسباب المذكورة فى سلسلة الأسباب والمسببات ، إن الذى ضم الصفات فى الكائن والخصائص إلى بعضها وظن أن مجموعها يكون فى خياله إله الموجودات فأقبل عليه طائعا وأسلم له خاضعا من بعد أن صنعه بيده كما يفعل عابد الوثن ، يصنعه ثم يتخيل أنه ينفع ويضر ثم يعبده .

وما أشد التشابه بين من كانوا يعبدون الأصنام من قبل ويناقشون عنها ، ومن يعبدون الطبيعة اليوم ويجادلون عنها ، فالدوافع النفسية واحدة ونوعية الخطأ واحدة ، وهو الاصطناع فى أول الأمر وتوهم الاستقلال والتأثير فى آخره .

والقرآن الكريم يشير إلى أن هؤلاء جميعا وإن تعددت نظرياتهم فى ادعاء إلاهية الطبيعة فى كل ذلك إلا أسماء يسمونها الملحدون ، ولكنها لاقيمة لها ولافاعلية ولاتأثير ، يقول الله تعالى :

[ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وأباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون] . (يوسف — ٤٠)

[قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وأباؤكم ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا إنى معكم من المنتظر] . (الأعراف — ٧٠ ، ٧١)

وهكذا نجد بعض طوائف البشرية تتوارث الضلال ، فالذين من قبل قد ضلوا من ناحية وبعض آخر من خلفهم يضلون اليوم ، والقضية فى عمومها لم تكن إلا أسماء يسمونها فى بادىء الأمر ثم يجادلون عنها كحقيقة واقعة فى نهاية الأمر .

ونستطيع أن نوجز القول فى الطبيعة المزعومة [إلها] بأنها إما أن تكون حدثت بذاتها وهذا يتناقض ما سبق أن قررناه من أن كل حادث لابد له من محدث ، على أن كثيرا من المحققين ذهبوا إلى أن هذه القضية بديهية .

وإما أن صفاتها تخلق ذاتها ، وهذا بين البطلان ، حيث إن الذات قد عجزت عن خلق نفسها ، فهـل الصفة تخلق الذات ؟ إنه لا يقول بذلك عاقل .

أو نقول إن وجودها من خارج عنها وهو مصدر كل أسبابها وإليه ترجع جميع الأسباب وهو الله الخالق سبحانه ، وهو الذى نقول به وبوجب الاسلام معرفته ، فالله موجد وفاعل والطبيعة مخلوقة منفعلة .

وهكذا نجد أن الطبيعة إله العصر المزعوم لم تثبت دعائم الاستدلال على إلاهيتها أمام العقل وقضاياه المنطقية والاثباتات العلمية . وأنه لم يكن هناك إلا الصفات والخصائص المحكومة بنواميس الكون الذى نظم وجوده وأبدعه بديع السموات والأرض .

المصادفة لا تنشىء الحياة :

هذا وإن كنا قد استقرأنا من الموجودات حال النبات متمثلة فى الطبيعة فإنه لا يأتى أن نتبع ذلك استقراء حال الحيوان مع ذكر أراء بعض الباحثين فى الطبيعة كشواهد على أن الحق هو ما قرره القرآن وأثبته الاسلام .

إنه لا يقدر على أن ينشىء الحياه منذ البدء من الموات إلا الله ولا يقدر إلا الله أن يهب الكائن الحى على القدرة على إحالة الذرات الميتة إلى خلايا حية . . .

كما لا يقدر غيره على تحويل الخلايا الحية مرة أخرى إلى ذرات ميتة .

فى ذروة العلم لم يزل أحد يقينا بعد متى بدأت ولا كيف تتم . . وإن هذه إلا فروض ونظريات واحتمالات .

لقد عجزت كل محاولة لتفسير ظاهرة الحياة على غير أساس أنها من خلق الله ، ومنذ أن شرد الناس من الكنيسة فى أوربا « كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة » وهم يحاولون تفسير نشأة الكون بدون الالتجاء إلى الاعتراف بوجود الله ، ولكن هذه المحاولات كلها فشلت جميعا ، ولم تبق منها فى القرن العشرين إلا محاكاة تدل على العناد ولا تدل على الإخلاص .

وأقوال بعض علمائهم الذين عجزوا عن تفسير وجود الحياة إلا بالاعتراف بالله تصور حقيقة موقف علمهم نفسه من هذه القضية . ونحن نسوقها لمن لا يزالون يقتاتون على فتات موائد القرنين الثامن عشر والتاسع عشر من الأوربيين ، عازفين عن هذا الدين ، لأنه يثبت (الغيب) وهم « علميون » لا « غيبيون » ، ومن هؤلاء العلماء الذين نختار لهم « فرانك ألن » (١) .

« وإذا لم تكن الحياة قد نشأت بحكمة وتصميم سابق ، فلابد أن تكون قد نشأت عن طريق المصادفة ، فما هى تلك المصادفة إذن ؟ هل نتدبرها ونرى كيف تخلق الحياة ؟

إن نظرية المصادفة والاحتمال الآن من الأسس الرياضية السليمة مايجعلها تطبق على نطاق واسع حينما انعدم الحكم الصحيح المطلق ، وتضع هذه النظريات أمامنا الحكم الأقرب إلى الصواب — مع تقدير احتمال الخطأ فى هذا الحكم — ولقد تقدمت دراسة نظرية المصادفة والاحتمال من الوجهة الرياضية تقدما كبيرا حتى أصبحنا غادرين على التنبؤ بحدوث بعض

(١) (فرانك ألن) عالم أمريكى حصل على الماجستير والدكتوراه من جامعة (كورنل) وكان أستاذا للطبيعة الجوية بجامعة (مايتوبا) بكندا ، راجع هذا فى كتابه (الله يتجلى فى عصر العلم) ترجمة الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان ، فصل : (نشأة العالم هل هو مصادفة أو قصد) .

الظواهر الذى نقول : إنها تحدث بالمصادفة والتى نستطيع أن نفسر ظهورها بطريقة أخرى (مثل قذف الزهر فى لعبة النرد) .

ولقد صرنا بفضل تقدم هذه الدراسات قادرين على التمييز بين مايمكن أن يحدث بطريقة المصادفة(١) ، وما يستحيل حدوثه بهذه الطريقة ، وأن نحسب احتمال حدوث ظاهرة من الظواهر فى مدى معين من الزمان ، ولننظر الآن إلى الدور الذى تستطيع أن تلعبه المصادفة فى نشأة الحياة .

« إن البروتينات من المركبات الأساسية فى جميع الخلايا الحية ، وهى تتكون من خمسة عناصر هى : الكربون ، والأدروجين ، والنيتروجين ، والأوكسجين ، والكبريت ، ويبلغ عدد الذرات فى العدد الواحد ٤٠٫٠٠٠ ذرة ، ولما كان عدد العناصر الكيماوية فى الطبيعة ٩٢ عنصرا ، موزعة كلها توزيعا عشوائيا(٢) ، فإن احتمال اجتماع هذه العناصر الخمسة ، لكى تكون جزئيا من جزئيات البروتين ، يمكن حسابه لمعرفة كمية المادة التى ينبغى أن تخلط خلطا مستمرا لكى تؤلف هذا الجزىء ، ثم لمعرفة طول الفترة الزمنية اللازمة لكى يحدث هذا الاجتماع بين ذرات الجزىء الواحد.

---

(١) نحن بتصورنا الإسلامى لا نعرف أن هناك (مصادفة واحده) فى هذا الوجود ، وإنما هو قدر الله يخلق به كل شىء « إنا كل شىء خلقناه بقدر » وهناك سنن مطردة للوجود هى النواميس ، وفى كل مرة تنفذ فيها السنة فإنها تنفذ بقدر بدون جبرية آلية ، وكذلك يقع أن يجرى قدر الله بالخارقة لتلك النواميس — فى ظروف معينة لحكمة خاصة . فالقانون والخارقة كلاهما يمر بقدر خاص فى كل مرة يجرى فيها . ونحن حين نقتطف من حديث العلماء فإن هذا لا يعنى الموافقة على كل مايقولونه .

(٢) هذا من خليط العلماء فليس هناك توزيع عشوائى ، إنما هنالك توزيع مرسوم بقدر معلوم .

ولقد قام العالم الرياضى السويسرى « تشارلز يرجين جاى » بحساب هذه العوامل جميعا فوجد أن الفرصة لاتتهيأ عن طريق المصادفة لتكوين جزىء بروتينى واحد إلا بنسبة ١ إلى ١٠^١٦٠ ، أى بنسبة واحد إلى رقم عشره مضروبا فى نفسه مائة وستين مرة وهو رقم لا يمكن النطق به أو التعبير عنه بكلمات .

وينبغى أن تكون كمية المادة التى تلزم لحدوث هذا التفاعل بالمصادفة بحيث ينتج جزئيا واحدا أكثر مما يتسع له كل هذا الكون بملايين المرات . ويتطلب تكوين هـذا الجزىء على سطح الأرض وحدها — عن طريق المصادفة — بلايين لا تحصى من السنوات أقدرها العالم السويسرى بأنها عشرة مضروبة فى نفسها ٢٤٣ مرة من السنين . إن البروتينات تتكون من سلاسل طويلة من الأحماض الأمينية ، فكيف تتألف ذرات هذه الجزئيات؟ إنها إذا تألفت بطريقة غير التى تتألف بها تصير غير صالحة للحياة ، بل تصير فى بعض الأحيان سموما .

وقد حسب العالم الإنجليزى . ج . ب . ليثر . الطرق التى يمكن أن تتآلف بها الذرات فى حد الجزئيات البسيطة من البروتينات فوجد أن عددا يبلغ الملايين (١٠ مضروبا فى نفسه ٤٨ مرة) وعلى ذلك فإنه من المحال عقلا أن تتآلف كل هذه المصادفات لكى تبنى جزئيا بروتينيا واحدا .

ولكن البروتينات ليست إلا مواد كيماوية عديمة الحياة ولا تدب فيها الحياة إلا عندما يحل فيها ذلك السر العجيب الذى لا ندرى من كنهه شيئا ، إنه العقـل اللانهائى(١) . وهو الله وحده الذى استطاع

---

(١) هذا التعبير (العقل اللانهائى) من رواسب الفلسفة يستخدمة من عنده هذه الرواسب فى ثقافته . والمسلم لا يعبر عن الله — سبحانه — إلا بما سحر به نفسة من أسمائه الحسنى .

أن يدرك(١) ببالغ حكمه أن مثل هذا الجزىء البروتينى يصلح لأن يكون مستقراً للحياة فبناه وصوره وأغدق عليه سر الحياه) .

ويقول إيرفنج وليم(٢) .

(إن العلوم لا تستطيع أن تفسر لنا كيف نشأت تلك الدقائق الصغيرة المتناهية فى صغرها والتى لايحصيها عد ، وهى التى تتكون منها جميع المواد كما لا تستطيع العلوم أن تفسر لنا - بالاعتماد على فكرة المصادفة وحدها - كيف تتجمع هذه الدقائق الصغيرة لكى تكون الحياة . ولاشك أن النظرية التى تدعى أن جميع صور الحياة الراقية قد وصلت إلى حالتها الراهنة من الرقى بسبب حدوث بعض الطفرات العشوائية والتجمعات والهجائن ، تقول إن هذه النظرية لا يمكن الأخذ بها إلا عن طريق التسليم . فهى لا تقوم على أساس المنطق والإقناع)(٣) .

ويقول (ألبرماكومب وتشز) فى كتابه (العلوم تدعم إيمانى بالله) .

(وقد اشتغلت بدراسة علم الأحياء وهو من الميادين العلمية الفسيحة تهتم بدراسة الحياة ، وليس بين مخلوقات الله أروع من الأحياء التى تسكن هذا الكون . أنظر إلى برسيم ضئيل وقد نما على أحد جوانب الطريق ، فهل تستطيع أن تجد له نظيراً فى روعته بين جميع ماصنعه الإنسان من تلك

---

(١) وهذه من خليط العلماء أيضا .

(٢) حصل على الدكتوراه من جامعة (إيدى) وأخصائى فى وراثة النباتات وأستاذ العلوم الطبيعية بجامعة ميتشجان ، أنظر كتاب « المادية وحدها لا تكفى » .

(٣) وقد شاف مقاله من قبل إلى قول برتراند راسل نشأة الحياة مصادفة وزوالها كذلك بجبرية آلية .

(٤) متخصص فى علم الأحياء ، دكتوراه من جامعة تكساس ، أستاذ علم الأحياء بجامعة بايلور .

العدد والآلات الرائعة ؟ إنه آلة حية تقوم بصورة دائبة لا تنقطع آناء الليل وأطراف النهار ، بآلاف من التفاعلات الكيماوية والطبيعية . ويتم كل ذلك تحت سيطرة البروتوبلازم وهو المادة التى تدخل فى تركيب جميع الكائنات الحية فمن أين جاءت هذه الآلة الحية المعقدة ؟ إن الله لم يصنعها هكذا وحدها ، ولكنه خلق الحياة وجعلها قادرة على صيانة نفسها وعلى الاستمرار من جيل إلى جيل مع الاحتفاظ بكل الخواص والمميزات التى تعيننا على التمييز بين نبات وآخر - إن دراسة التكاثر فى الأحياء تعتبر أروع دراسات علم الأحياء وأكثرها إظهارا لقدرة الله - إن الخلية التناسلية التى ينتج عنها النبات الجديد تبلغ من الصغر درجة كبرى بحيث يصعب مشاهدتها إلا باستخدام المجهر المكبر .

ومن العجيب أن كل صفة من صفات النبات ، كل عرق ، وكل شعيرة ، وكل فرع على ساق ، وكل جذر أو ورقة يتم تكوينها تحت إشراف مهندسين قد بلغوا من دقة الحجم مبلغا كبيرا ، فما استطاعوا العيش داخل الخلية التى ينشأ منها النبات ، تلك الفئة من المهندسين هى فئة الكروموسومات (ناقلات الوراثة)(١) .

إن الجامع لما قاله العلماء فى علوم الأحياء والنبات والبيولوجيا هو قول الله الحكيم : « إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ذلكم الله فأنى تؤفكون » [الأنعام ٩٥] .

[ذلكم ربكم] مبدع هذه المعجزة المتكررة المغيبة السر - هو الله - وهو ربكم الذى يستحق أن تدينوا له وحده بالعبودية والخضوع والاتباع(٢)

---

(١) هذا بإذن الله الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ، وبقدر الله الذى تم به كل حركة فى الوجود كله .

(٢) راجع كلمة (الرب) فى كتاب المصطلحات الأربعة فى القرآن لأبى الأعلى المردودى .

(فأنى تؤفكون) أى فكيف تصرفون عن هذا الحق الواضح للعقول والقلوب والعيون ، إن معجزة انبثاق الحياة من الموات يجىء ذكرها كثير فى القرآن الكريم ، كما يجىء ذكر خلق الكون ابتداء فى معرض التوجيه إلى حقيقة الألوهية وآثارها الدالة على وحدة الخالق لينتهى منها إلى ضرورة وحدة المعبود الذى يدين له العباد بالاعتقاد فى ألوهيته وحده ، والطاعة لربوبيته وحده . والتقدم إليه وحده بالشعائر التعبدية والتلق منه وحده فى منهج الحياة كله والدينونة لشريعته كذلك وحدها .

وهذه الدلالات لا تذكر فى القرآن الكريم فى صورة قضايا لاهوتية أو نظريات فلسفية .

إن هذا الدين أكثر جدية من أن ينفق طاقة البشر بإعطائهم العقيدة لينتهى إلى تقدم حياة البشر الباطنة والظاهرة ،

وذلك لا يكون أبدا إلا بردهم إلى عبادة الله وحده وإخراجهم من عبادة الطبيعة أو العباد ، ولهذا كان التعقيب فى الآية الكريمة بقوله عز وجل (ذلكم الله ربكم فأنى تؤفكون) ذلكم الله الذى يستحق الربوبية عليكم ، والرب هو المربى والسيد والحاكم ، ومن ثم يجب ألا يكون الرب إلا الله .

وفى هذه التأملات فى كتاب الله الحكيم يجمل بنا أن نسترسل فى هذه التأملات فى الآيات الكونيه المبهرة للأنظار والموقظه للقلوب ، إن الله : يقول بعد الآية الكريمة سالفة الذكر «فالق الأصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم» .

إن بين انفلاق الحب والنوى وانفلاق الأصباح وسكون الليلة صلة أخرى، إن الأصباح والأمساء والحركة والسكون فى هذا الكون — أو فى هذه الأرض — ذات علاقة مباشرة بالنبات والحياة .

إن كون الأرض تدور دورتها هذه حول نفسها أمام الشمس وكون القمر بهذا الحجم ، وبهذا البعد من الأرض وكون الشمس كذلك بهذا الحجم وهذا البعد وهذه الدرجة من الحرارة : هى تقديرات من «العزيز» ذى السلطان القادر : «العليم» ذى العلم الشامل ، ولولا هذه التقديرات : ما انبعثت الحياة فى الأرض على هذا النحو ولما انبثق النبت والشجر من الحب والنوى .

إنه كون مقدر بحساب دقيق ، ومقدر فيه حساب الحياة . ودرجة هذه الحياة ، ونوع هذه الحياة ، كون لا مجال للمصادفة العابرة فيه .

وهذا ما يسمونه المصادفة خاضع لقانون ومقدر بحساب .

والذين يقولون إن هذه الحياة فلتة عابرة فى الكون ، وأن الكون لا يحفلها ، بل يبدو أنه يعاديها ، وأن ضآلة الكوكب الذى قام عليه هذا النوع من الحياة توحى بهذا كله ، بل يقول بعضهم : أن هذه الضآلة توحى بأنه لو كان «إله» ما عنى نفسه بهذه الحياة إلى آخر ما يقولون من لغو يسمونه أحيانا «علماء» ويسمونه أحيانا أخرى «فلسفة» وهو لغو لا يستأهل حتى مناقشته .

إن هؤلاء إنما يحكمون أهواء مستقره فى نفوسهم ، ولا يحكمون حتى نتائج علمهم التى تفرض نفسها عليهم، وإذا قرأت كلامهم تجد كأنهم هاربون من مواجهة حقيقية قرروا سلفا ألا يواجهوها :

أنهم هاربون من الله الذى تواجههم دلائل وجوده ووحدانيته وقدرته المطلقة فى كل اتجاه، وكلما سلكوا طريقا يهربون بها من مواجهة هذه الحقيقة وجدوا الله فى نهايتها .

فعادوا فى ذعر إلى طريق آخر ليواجهوا الله — سبحانه فى نهايتها كذلك ، إنهم بائسون ، لقد فروا ذات يوم من الكنيسة وإلهها الذى

تستذل به الرقاب، فروا (كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة) ثم مازالوا في فرارهم التقليدي حتى أوائل هـــذا القرن ، دون أن يلتفتوا وراءهم ليروا إن كان الكنيسة ما تزال تتابعهم أم انقطعت منها ، كما انقطعت فيهم الأنفاس .

إنهم يائسون لأن نتائج علومهم ذاتها تواجههم اليوم أيضا . . فإلى أين الفرار ؟؟ .

يقول : « فرانك ألن » العالم الطبيعي الذي اقتطفنا فقرات من مقاله في الفقرة السابقة عنه نشأة الحياة :

يقول : « إن ملاءمة الأرض للحياه تتخذ صورا عديدة لا يمكن تفسيرها على أساس المصادفة أو العشوائية ، فالأرض كرة معلقة في الفضاء تدور حول نفسها ، فيكون في ذلك تتابع الليل والنهار ، وهي تسبح حول الشمس مرة في كل عام ، فيكون في ذلك تتابع الفصول الذي يؤدي بدوره إلى زيادة مساحة الجزء الصالح للسكنى من سطح كوكب الأرض ، وينمي من اختلاف الأنواع النباتية أكثر مما لو كانت ساكنة ، ويحيط بالأرض غلاف غازي ، يشتمل على الغازات اللازمة للحياة ويمتد حولها إلى ارتفاع كبير (يزيد على ٥٠٠ ميل) .

ويبلغ هذا الغلاف الغازي من الكثافة درجة تحول دون وصول ملايين الشهب القاتلة يوميا إلينا ، منقضة بسرعة ثلاثين ميلا في الثانية ، والغلاف الجوي الذي يحيط بالأرض يحفظ درجة حرارتها في الحدود المناسبة للحياة ، ويحمل بخار الماء من المحيطات إلى مسافات بعيدة داخل القارات ، حيث يمكن أن يتكاثف مطر يحيي الأرض بعد موتها :

والمطر مصدر الماء العذب ، ولولاه لأصبحت الأرض صحراء وجرداء خالية من كل أثر للحياة :

ومن هنا ترى أن الجو والمحيطات الموجودة على سطح الأرض تمثل عجلة التوازن في الطبيعة » .

إن الأدلة (العلمية) تتكاثر في وجوههم وتتجمع لتعلن عجز المصادفة عجزا كاملا من تعليل نشأة الحياة ، بما يلزم لهذه النشأة — وللنمو والبقاء والتنوع بعدها — من موافقات لا تحصى في تصميم الكون : منها هذه الموافقات التي ذكرها العالم الطبيعي السابق :

ووراءها من نوعها كثير ، فلا يبقى إلا تقدير العزيز العليم ، الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ، والذي خلق كل شيء فقدره تقديرا :

وإننا في الحق نريد أن ننهى الكلام في هذا البحث ، إلا أن آيات القرآن الكونية تشد القلب والوجدان إلى استكناه معانيها الداعية للجاحدين المذكرة للمؤمنين :

نظر إلى قوله تعالى : (وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون) .
(سورة الأنعام : ٩٦)

فإن القرآن الكريم يمتاز منهجه بميزة تبقى في مخاطبة النظرة بالحقائق الكونية ، ليس في صوره (نظرية) ولكن في صوره (واقعية) ،

صورة تتجلى : من ورائها يد المبدع ، وتقديره ، ورحمته ، وتدبيره ، صوره مؤثره في العقل ، والقلب ، موصية للبصيره والوعي ، دافعة إلى التدبر والتذكر ، وإلى استخدام العلم والمعرفة للوصول إلى الحقيقة الكبرى المتناسقة ، فكأن قوله عز وجل : تعقيبا على آية النجوم : أنه جعلها للناس ليهتدوا بهـــا في ظلمات البر والبحر ،

والإهتداء : نما هو فى الظلمات الحسية الواقعية ، وفى ظلمات العقل ، والضمير والبصيره :

هذا ما قصدنا بحثه ووفق الله إليه وهو الذى يقول الحق وهو يهدى السبيل ، والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

بقلم الدكتور
محمد أبو الغيط الفرت
الأستاذ المساعد بكلية أصول الدين بالقاهرة
جامعة الأزهر